الفصل الثالث

الضبط الاجتماعى والقـانون

سبق أن ذكرنا أنه لا يمكن فهم القانون بمعزل عن غيره من الظاهرات الاجتماعية كما أنه لا يمكن فهمه الا فى اطار العملية التاريخية التى يمر بهـا المجتمع الانسانى وليس من الصعب علينا أن ندرك ان القانون المكتوب كما نعرفه الآن فى المجتمعات المتقدمة ليس هو الشـكل الذى يحكم العـلاقات الانسانية فى مختلف مجالات النشـاط الانسانى فى كل المجتمعات المعاصرة فما زالت هناك مجتمعات لا وجود للقانون بشكله المعروف لدينـا فيها • كما أنه لا يوجد فى مثل هذه المجتمعات أجهزة متخصصة فى التشريع أو القضاء أو الشرطة • (مثل الكثير من المجتمعات القبلية فى افريقيا) كما أن عهـد المجتمعات البشرية بالقانون المكتوب قصـير جدا بالقياس الى عمر المجتمع الانسـانى •

ولكن المجتمع الانسانى قد عرف منذ بداية تكوينه أنماطا مختلفة من تنظيم للعلاقات الاجتماعية بين أعضائه ووضع قواعد مختلفة للسلوك فى كافة أنواع المواقف كما أنه وضع ايضا جزاءات للخروج على هذه القواعد والمعايير(١) •

والواقع ان القانون ليس سـوى وسيلة من وسـائل تنظيم العلاقات الاجتماعية فى مختلف جوانب النشاط الانسانى ولكنه يختلف عن غيره من الوسائل فى انه يتخذ شكلا رسميا محددا وتقوم بوضعه هيئة رسمية كما تشرف على تطبيقه وتنفيذه هيئات متخصصة • والصلة بين القانون وغيره من وسائل تنظيم العلاقات الاجتماعية صلة وثيقة فالقانون من جهة قد نشـأ من هذه الوسائل (كالعرف والأخلاق والتقاليد والدين) وهو من جهة أخرى يعبر عنها ويتغير ويتعدل لكى يتلاءم مع ما يطرأ عليهـا من تغيرات • وهذه

---

(١) انظر : السيد بدوى . القانون والجريمة والعقوبة في التفكير الاجتماعى الفرنسى المجلة الجنائية القومية . مارس ١٩٦٥ . ص ٣ — ٦ .

الوسائل جميعا بما فيها القانون تتعدل وتتغير استجابة لما يحدث فى المجتمع ذاته من تغير وتحول ثقافى أو اقتصادى أو سياسى لذلك فانه يلزمنا لكى نفهم الأساس الاجتماعى للقانون أن نبدأ أولا بشرح لأساليب تنظيم العلاقات الاجتماعية فى المجتمع الانسانى لكى نحدد وضع القانون بينها ولكى نفهم المبادىء العامة التى تحكم هذه الوسائل جميعا فى تأثرها بالمجتمع . وهذه الأساليب التنظيمية للعلاقات الاجتماعية هى ما اصطلح علماء الاجتماع على تسميتها بالضبط الاجتماعى .

تعريف الضبط الاجتماعى Social Control :

ان مفهوم الضبط الاجتماعى من أكثر المفهومات استخداما فى علم الاجتماع الحديث منذ أن ظهر فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر فى كتابات عالم الاجتماع الأمريكى ادوارد روس Ross وخاصة كتابه المعنون « الضبط الاجتماعى » Social control (١) ولكن يجب أن نقرر أن موضوع الضبط الاجتماعى ذاته قديم قدم الفكر الانسانى فقد عالجه المفكرون والفلاسفة فى كتاباتهم منذ زمن بعيد جدا تحت مسميات مختلفة فقد تناوله أفلاطون مثلا فى مؤلفه « الجمهورية » (سنة ٣٦٩ «ق.م») كما تناوله ابن خلدون فى مقدمته فى القرن الرابع عشر الميلادى(٢) كذلك تناوله فلاسفة العقد الاجتماعى من أمثال توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) وجان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) وجون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧١٤) ولم تخل مؤلفات رواد علم الاجتماع من تناول لهذا الموضوع فقد عالجه أوجست كونت وهربر سبنسر واميل دوركايم وماكس ميبر ولستر وارد وكارل ماركس ، بل اننا نستطيع القول دون أن يجانبنا الصواب أن موضوع الضبط الاجتماعى هو المحور الأساسى الذى يدور حوله علم الاجتماع الأكاديمى الغربى منذ نشأته ويذهب البعض الى ما هو أبعد من ذلك حيث يرون أن علم الاجتماع الغربى بأسره ليس سوى وسيلة من

---

(١) Ross, E. Social Contral : A Survey of the Foundations of Order (New York : American Book Co, 1901).

(٢) حسن الساعاتى : علم الاجتماع القانونى مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ ص ٢٤ .

وسائل الضبط الاجتماعى (أوسيبوف فى كتابه قضايا علم الاجتماع) (١) وسوف يتضح لنا ذلك بعد معالجتنا لمدلولات هذا المفهوم ولأساليب الضبط الاجتماعى المختلفة ٠

وهناك تعريفات مختلفة للضبط الاجتماعى ولكنها تتفق فى تركيزها على أنه نوع ما من الضغط الذى تمارسه المجموعة أو المجتمع على أفراده من أجل المحافظة على استقرار النظام فى المجتمع وفيما يلى نماذج لهذه التعريفات :

يعرف أدوار روص Ross الضبط الاجتماعى بأنه « التسلط الاجتماعى المتعمد على الفرد الذى يهدف الى تحقيق وظيفة ما فى حياة المجتمع » ، وذكر من بين وسائل الضبط الاجتماعى الرأى العام والقانون والمعتقدات والتعليم والدين والطقوس ورأى أن القانون من أهم هذه الأساليب كما ميز بين نوعين من أساليب الضبط الاجتماعى وهما الأساليب المباشرة أو الصريحة والأساليب غير المباشرة أو الضمنية (٢) ٠

ويعرف جورج جورفيتش الضبط الاجتماعى بانه « مجموع النماذج الثقافية والرموز الجمعية والمعانى الروحية المشتركة والقيم والأفكار والمثل وكذلك الأفعال والعمليات المتصلة بها مباشرة والتى يستطيع بها المجتمع والمجموعة وكل فرد أن يقضى على الصراع والضيق الحادثين فى داخله عن طريق اتزان مؤقت وأن تتخذ خطوات نحو جهود مبتكرة ذات آثار فعالة » (٣)

ويعرفه تشارلز كولى بأنه « ضبط المجتمع لنفسه الذى يتم من خلال عملة التنظيم والخلق وليس بواسطة فرد أو أفراد معزولين » (٤) ٠

---

(١) أوسيبوف ٠ قضايا علم الاجتماع ٠ ترجمة سمير نعيم وفرج أحمد ٠ دار المعارف ٠ ١٩٧٠ ٠

(٢) Ross, E. Social Control (New York. American Books Company, 1901).

(٣) G. Gurvitch. «Social Control» in G. Gurfitch and c. Moore. Twentieth Century Sociology (New York philosophical library, 1945).

(٤) Cooley, C Social Organisation (New York, 1909).

وعرفه بول لاندز بأنه « سلسلة من العمليات الاجتماعية التى تجعل الفرد مسئولا تجاه المجتمع وتقيم التنظيم الاجتماعى وتبقى عليه وتتشكل من خلالها شخصية الفرد عن طريق تطبيعه اجتماعيا وتؤدى الى تحقيق نظام اجتماعى أكمل لأنه ليس من الممكن قيام مجتمع منظم ولا خلق شخصية متكاملة دون وجود مجموعة من القيم الملزمة » (١) .

ويعرف جوزيف روسك Joseph Roucek الضبط الاجتماعى بانه « لفظ عام يشير الى تلك العمليات التى يتم بمقتضاها تعليم الأفراد قيما وأساليب معينة أو استمالتهم اليها أو اكراههم على الانصياع لها سواء كانت هذه العمليات تتم وفق خطة مرسومة وواعية أم تتم بشكل تلقائى » .

ويحدث الضبط الاجتماعى عندما تحدد مجموعة ما سلوك مجموعة أخرى وعندما تتحكم المجموعة فى سلوك أعضائها أو عندما يؤثر الأفراد على استجابات غيرهم ، وعلى ذلك فان الضبط الاجتماعى حدث على ثلاث مستويات :

١ — ضبط من المجموعة على مجموعة أخرى .

٢ — ضبط من المجموعة على أعضائها .

٣ — ضبط من أفراد على زملائهم .

وبعبارة أخرى يحدث الضبط الاجتماعى حين يستمال الفرد أو يكره على التصرف طبقا لرغبات الآخرين بغض النظر عما اذا كان هذا التصرف متفقا مع رغباته الشخصية أم لا (٢).

ويعرف روسكو باوند الضبط الاجتماعى بأنه « الضغط الواقع على كل

---

(١) P. Landis, Social Control : Social Organisation and Disorganisation in Process (Philidaelphial J. B. lippincoît Co. 1939).

(٢) J. Roucek. Social Control. (London, Van Nestrand (1962). p. 3.

فرد من بقية أعضاء المجتمع لالزامه بالقيام بواجبه نحو المجتمع ولردعه عن السلوك غير الاجتماعى أو السلوك الذى لا يتفق وقواعد النظام فى المجتمع(١) ٠

ويعرفه بيتر برجر Berger فى كتابه Sociology بأنه « لفظ يشير الى مختلف الأساليب التى يستخدمها المجتمع لاجبار أفراده المتمردين على العودة الى الانصياع لمعايير المجتمع » ٠ ويرى أنه « لايمكن لأى مجتمع أن يستمر فى البقاء دون ضبط اجتماعى » ٠

ويورد الأستاذ الدكتور حسن الساعاتى هذا التعريف الشامل للضبط الاجتماعى :

« يمكن تعريف الضبط الاجتماعى فى النهاية بأنه استخدام البدنية أو الوسائل الرمزية لفرض أو أعمال القواعد أو الأفعال المقررة ٠ ويكون الفرض بالاجبار والقهر ، أما الاعمال فيكون بالايحاء والتشجيع والثناء وغير ذلك من الوسائل ٠

وقد يتضمن الضبط الاجتماعى سيطرة مجموعة على أخرى أو مجموعة على أعضائها أو سيطرة أفراد على افراد آخرين سيطرة توجه الأفكار والسلوك الوجهة التى تراها الهيئة المسيطرة أو الأفراد المسيطرون ٠

ولعل أقوى هيئة ذات سيطرة قوية وواسعة النطاق فى عصرنا هذا هى الدولة»(٢) ٠

الضبط الاجتماعى والضبط الذاتى :

يميز علماء الاجتماع بين الضبط الاجتماعى والضبط الذاتى ، فالضبط الاجتماعى يحدث حين تحدد مجموعة ما سلوك مجموعة أخرى أو حين تتحكم

---

(١) R. Pound. Social Control Through law (New Haven : Yale University Press, 1942).

(٢) حسن الساعاتى . علم الاجتماع القانونى (القاهرة مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٦٨ ، ص ١٢ ٠

المجموعة فى سلوك أعضائها وعلى هذا فانه لا يوجد أى شخص لا يقع تحت تأثير الضبط الاجتماعى ٠

أما الضبط الذاتى فهو القوة التى يمارسها الفرد على نفسه من أجل أن يجعل سلوكه متفقا مع معيـار خاص به ٠ ومن الواضح أنه لا يمكن الفصل بين الضبط الاجتماعى والضبط الذاتى فأى معيار يوجد لدى شخص ما لا يأتى من فراغ ولكنه يستمده أصلا من المعايير الاجتماعية السائدة فى مجموعته من خلال عملية التطبيع الاجتماعى ٠

ولا يمكن ان نتصور حالة ينفصل فيها الضبط الذاتى عن الضبط الاجتماعى الا فى تلك الجوانب القليلة جدا والقريبة من السلوك البيولوجى مثل النوم(١) ٠

التمييز بين الضبط الاجتماعى والزعامة :

حينما يحاول شخص ما أن يتحكم فى سلوك الآخرين فانه فى هذه الحالة يمارس زعامة وليس ضبطا اجتماعيا ولكن من يجمع من حوله مجموعة من الأتباع يشتركون معه فى محاولة التأثير على سلوك مجموعة اكبر فانه يعتبر فى هذه الحالة وسيطا للضبط الاجتماعى ٠

فمثلا حين تخرج مجموعة من الأصدقاء سـويا فى رحلة ما يحاول واحد منهم أن يستميلهم لأداء سلوك معين ويكرر هذه المحاولات فى مواقف مختلفة فانه فى هذه الحالة يمارس الزعامة أو القيادة وينجح فيها اذا حظى باستجابات ايجابية من الآخرين ولكنه لايكون ممارسا للضبط الاجتماعى ٠

ولكن اذا تكونت مجموعة بهدف سياسى (حزب مثلا أو تنظيم سياسى) وكان لهـا قائد أو زعيم التف حوله أعضاء المجموعة ثم أخذت هـذه المجموعة بأسرها تنشر مبادئها أو أفكارها السياسية وحاولت أن تصل الى التأثير على مجموعات أخرى أو السيطرة عليها او الوصول الى السلطة فاننـا فى هـذه الحالة نكون بصـدر عملية ضبط اجتماعى تحاول مجموعة ما أن تستميل أو

---

(١) J. Roucek. opt. ct, p, 5,

فكرة مجموعة أو مجموعات أخرى على التصرف وفقا لرغباتها أو الانصياع لمعاييرها ٠

وفى هذه الحالة يكون قائد هذه المجموعة أو زعيمها وسيطا للضبط الاجتماعى حيث تقدمه المجموعة التى ينتمى اليها بوصفه مثلا يحتذى به وتمجد فيه وتحاول أن تستخدمه هو نفسه كأداة أو وسيلة لاستمالة الآخرين(١) ٠

أبعاد الضبط الاجتماعى :

يمكننا أن نلاحظ من التعريفات المختلفة التى قدمها علماء الاجتماع للضبط الاجتماعى أن كلا منها قد ركز على جانب أو بعد معين من جوانب الضبط الاجتماعى ويمكننا أن نجمل هذه الأبعاد فيما يلى :

١ ــ قوة ما تمارس الضبط وهذه القوة قد تكون المجتمع ككل أو مجموعة ما من الأفراد ٠

٢ ــ أفراد أو مجموعات هم موضوع الضبط أو الموجهة اليهم عملية الضبط ٠

٣ ــ مجموعة قيم ومعايير تهدف القوة التى تمارس الضبط على غيرها ان تؤكدها وتعمل على تثبيتها واستمراريتها ٠

٤ ــ أهداف عامة تقصد القة ملتى تمارس الضبط تحقيقها ، وهذه الأهداف قد تكون أهدافا اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو دينية أو خليط منها سويا ٠

٥ ــ أساليب تتبع لتحقيق عملية الضبط مثل العنف أو استخدام القوة أو وسائل الاستمالة مثل الدعاية أو التأثير على الراى العام أو نشر ايديولوجية معينة أو سن قوانين وانشاء أجهزة للعمل على تنفيذها ٠٠ الخ ٠

---

(١) J , Roucek opt, ct, p, 6,

اغراض الضبط الاجتماعى :

يميز جوزيف روسك بين ثلاثة أغراض للضبط الاجتماعى و

١ ـ أغراض استغلالية Exploitative وفى هذه الحالة يهدف الضبط الاجتماعى الى تحقيق مصلحة خاصة لمجموعة ما بطريقة مباشرة ويضرب روسك لذلك مثلا بما تلجأ اليه الشركات الصناعية من أساليب دعائية واعلانية من أجل استمالة النـاس والضغط عليهم لشراء منتجاتها ٠

٢ ـ أغراض تنظيمية Regulatory تعتمد على الرغبة فى المحافظة على السلوك التقليدى المعتاد ومحاولة عدم المساس أو احداث أى تغيير فيه ٠

٣ ـ أغراض ابداعية أو بناءة تهدف الى تحقيق تغير اجتماعى ما تعتقد القوة الممارسة للضبط أنه مفيـد أو بنـاء ٠

ويرى كمبل يونج Young فى كتابه « علم الاجتماع » أن اهداف الضبط الاجتماعى الأساسية تتلخص فى تحقيق الانصياع لمعايير الجماعة وضـمان تماسكها واستمراريتها ٠ ويتفق كثير من علماء الاجتماع مع يونج فى تحديدهم لهذه الاهداف للضبط الاجتماعى وقـد سبق أن أشرنا الى آراء بعض العلماء فى أهداف الضبط الاجتماعى عند تقديمنا لتعريفات الضبط الاجتماعى(١) ٠

تعليق عام على مفهوم الضبط الاجتماعى وآراء علم الاجتماع فيه :

بما أن موضوع الضبط الاجتماعى يمثل الخلفية الفكرية التى يعالج علماء الاجتماع موضوع القانون بوصـفه ظاهرة اجتماعية على ضوئها فاننا نرى لزاما علينا ان نتوقف هنا قليلا لنتناول مفهوم الضبط الاجتماعى فى كتابات علماء الاجتماع الغربيين بالتحليل والنقـد حتى نستطيع بعد ذلك ان نتفهم حقيقة موقفهم عند معالجة موضوع القانون ومدى علمية الأسس التى يعتمدون عليهـا فى تحليلهم لهذه الظاهرة موضوع دراستنا ٠

لو أننا تأملنا مختلف التعريفات التى قدمها علماء الاجتماع للضبط

---

(1) K. Young. Sociology (Cincisnati, American Book Co., 1942) p. 894.

الاجتماعى ولأهدافه وجدنا بهـا صفتين أساسيتين ٠

أولهما : ان الضبط لا غنى عنه لاستقرار المجتمع وتماسكه واستمرارية بقـائه ٠

وثانيهما : تأكيد على فكرة النظام وضرورة انصياع أفراد المجتمع لما يتطلبه المجتمع من سلوك ومعايير من أجل الحفاظ على النظام فيه ٠

ولا يجب أن تمر علينا هاتان الصفتان دون أن تثير فى أذهاننا العديد من الأسـئلة اعتمادا على خبرتنا العـادية بالمجتمع وما حصلناه من معرفة تاريخية بطبيعة تكوين المجتمعات البشرية وما نعلمه عن العلاقة بين النظريات الاجتماعية من جهـة وبين الايديولوجية التى تعكسها هذه النظريات من جهة أخـرى ٠

أول هذه الأسئلة هو : ترى أى مجتمع ذلك الذى يتحدثون عنه ؟ انهم يتحدثون عن المجتمع بشـكل شديد العمومية والتجريد كما لو كان هناك نوع واحد فقط من المجتمعات عرفته البشرية ، ليس هذا فحسب ولكن كما لو كان هذا المجتمع أيضـا هو المجتمع الأمثل ٠ وبالطبع لا يفوتنا هنـا أن نلاحظ أن هذا النموذج الأمثل من المجتمع الذى يتحدثون عنه هو المجتمع الذى يعيشون فيه أى المجتمع الغربى ٠ ان الواقع المعاصر والتاريخ يدلنـا على خطأ مثل هذا الادعاء ٠ فالمجتمع ليس شـيئا عاما أو فكرة مجردة فقط ولكن هنـاك مجتمعات بعينها فى فترات تاريخية محددة ولهـا خصائص عن غيرها من المجتمعات ٠ فالمجتمع البدائى القديم مثلا الذى لم يكن يعرف بعد تقسيم العمل على أسس أخرى غير السن والجنس مثلا والذى لم تكن وسـائل الانتاج فيه تطورت بعد بحيث تسمح بأى تراكم للثروة لدى فرد أو أفراد معينين وبالتالى لم يكن قد عرف بعد التقسيم لأفراده على أساس ملكية الثروة ، مثل هذا المجتمع البسيط لم يكن ينقسم الى مجموعات متنافرة أو عدائية أو متضاربة فى مصالحها وبالتـالى فانه لم توجد فيه مجموعة تسـعى الى السيطرة على مجموعة أخرى أو الى اكراهها على الالتزام بمعايير أو أساليب سلوكية ضـد مصلحتها وبالتالى فان لنـا أن نتوقع أن الضبط الاجتماعى فى

هذه الحالة كان ضبطا عاما يمارسه المجتمع ككل على مختلف افراده من اجل صالح المجموع · ولكن هذه الصورة من المجتمع قد اختفت من البشرية منذ عهد بعيد ، أى منذ أن انقسم النـاس فى المجتمع الى مجموعات بعضها يملك والبعض الآخر لا يملك شيئا بل انه هو ذاته مملوكا للآخرين · وقد ظهرت هذه الصورة أول ما ظهرت فيما عرف بمجتمع العبيد · فى مثل هذا المجتمع كانت توجد مجموعة السـادة وتمثل قلع عددية ومجموعة العبيـد وتمثل الغالبية العظمى من أفراد المجتمع · وبالتالى فان عملية الضبط الاجتماعى (أو استمالة أو تعليم أو اكراه مجموعة ما على التصرف وفقا لارادة مجموعة أخرى حتى ولو كان هذا التصرف ضـد مصلحتها) كانت تمارس بالدرجة الأولى من قبل السـادة وكان العبيد هم موضوع هذا الضبط الاجتماعى ، وكان الهـدف الأساسى من هذا الضبط هو تحقيق مصلحة السـادة وفرض معاييرهم وقيمهم على العبيـد · ترى هل يمكننا هنـا فى هذه الحالة بالذات أن نقول أن الضبط الاجتماعى يهدف الى تحقيق النظام الاجتماعى وتأكيد سيادة المجتمع مثلما قرر ادوارد روس أو انه يهدف الى تحقيق نظام اجتماعى أكمل كما قرر بول لانذر أو انه يهدف الى اجبار الأفراد المتمردين على العودة الى الانصياع لمعايير المجتمع كما يقرر برجر ؟ أم أن الضبط الاجتماعى فى مجتمع العبيد كان لا يهدف الى تحقيق أو تأكيد سيادة المجتمع ولكنه كان يهدف الى تأكيد واستمرارية سـيادة اصحاب العبيـد أو السـادة ؟ وأى معايير يهدف الضبط الاجتماعى الى اعادة انصياع المتمردين لهـا أهى معايير المجتمع بصـفة عامة أم أنهـا مرة أخرى معايير السـادة ؟ وأى مصالح يحققها الضبط الاجتماعى هنـا اهى مصالح المجتمع ككل بما فى ذلك العبيد أم أنهـا مصالح أصحاب العبيـد ؟

ان ما يقال عن الضبط الاجتماعى بصفة عامة يمكن أيضا قوله على أحد أهم أساليبه ـ وهو موضوع دراستنا الأساسية فى هذا الكتاب ـ أى القانون · ان القانون كما يصوره علماء الاجتماع وكما سنرى فيما بعد وسيلة للحفاظ على رفاهية المجتمع واستمراريته ولكنه فى الواقع وعلى ضـوء تحليلنا هذا لا يمكن

فهمه الا بتحليل القوى الاجتماعية التى وضع هذا القـانون من أجل حمايتها والمحافظة على مصالحها ٠

أما علماء الاجتماع الذين يتحدثون عن المجموعات الاجتماعية المختلفة التى تمارس احداها ضبطا على غيرها (مثل روسك) فانهم أيضا يتحدثون عن هذه المجموعات بصفة عامة ودون تحديد وحديثهم ينطبق على أى نوع من المجموعات سـواء كانت مجموعات سن أو نوع أو جنس دون الاشـارة الى المجموعات الأساسية فى المجتمع ٠

ويكفى أن نعيد قراءة تعريف كولى للضبط الاجتماعى بأنه ضبط المجتمع لنفسه بنفسه ٠٠ الى آخره لكى ندرك هنـا مدى التعميم أو التجهيل الذى يلجأ اليه علماء الاجتماع التقليديون ٠ فالضبط الاجتماعى فى مجتمع العبيـد ليس ضبط المجتمع لنفسه بنفسه لكنه أساسا ضبط السـاة للعبيـد من خلال كافة أساليب التنشئة الاجتماعية وللقوانين والعادات والأعراف ٠٠ الخ ٠ التى تمارس تأثيرها على كل من السـادة والعبيـد ٠

فاذا ما نظرنا الى أشـكال المجتمع التالية على مجتمع والتى عرفتها البشرية مثل المجتمع الاقطاعى والمجتمع الرأسمالى لوجدنا نفس الشىء ٠ ففى المجتمع الاقطاعى ينقسم المجتمع الى طبقتين أساسيتين هما طبقة أصحاب الأرض أو الاقطاعيين وطبقة الأجـراء الزراعيين التى تعمـل عندهم ٠ وفى المجتمع الرأسمالى ينقسم المجتمع الى طبقتين رئيسيتين هما طبقة أصحاب رؤوس الأموال او الرأسماليين وطبقة الأجراء الصناعيين الذين لا يملكون شيئا سـوى قدرتهم على العمل ، وفى كلتا الحالتين تمارس الطبقة الأقوى اقتصاديا وبالتالى المسيطرة سياسيا وذات السيادة اجتماعيا مختلف وسائل الضبط الاجتماعى على الطبقة الأضعف اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا ٠ ويتضح ذلك بشكل جلى من دراستنا لأى مجتمع رأسمالى حديث ٠ فالسلطة السياسية والقانون وأجهزة تنفيذ القـانون ووسائل الأعلام والمؤسسات التربوية بل والمؤسسات الدينية تخضع جميعها للطبقة المسيطرة اقتصاديا أو بعبـارة أخرى هى ملك لهـا توجهها كيفما تشـاء ومن أجل تحقيق مصلحتها من

طريق نشر معاييرها وقيمها ومقاومة اى معايير أو قيم تتعارض معهـا وعن طريق ردع كل من يحاول التمرد على الأوضاع القائمة فى هذا المجتمع ، كما أنهـا تلجأ الى استخدام العنف والقوة الفيزيقية لاعادة الخارجين على ارادتهـا الى الانصياع لهذه الارادة • ويرتبط بهذه الفكرة العـامة والمجردة من المجتمع التى يقدمها علماء الاجتماع التقليديين عند حديثهم عن الضبط الاجتماعى فكرة اخرى لا تقل عنها أهمية فى فهمنا لطبيعة الأهداف التى يرمى اليها علماء الاجتماع وهى فكرة الاجماع أو الاتفاق العـام consensus والتى يصورون لنـا بمقتضاها أن هناك شبه اجماع أو اتفاق بين أفراد المجتمع جميعا أو غالبيتهم على معايير ومصالح عامة • هذه الفكرة ينفيها أيضا الواقع الاجتماعى للمجتمعات الطبقية • فالحقيقة أنه لا يوجد مثل هذا الاجماع على الاطلاق فلكل من الطبقات التى يتكون منها المجتمع الطبقى مصالحها وأهدافها المتعارضة مع مصالح وأهداف الطبقات المعـادية لهـا وتحول الطبقة المسيطرة دائما أن تنشر بين الطبقات المستغلة أوهام الهدف المشترك أو المصالح الواحدة بشتى الأساليب وذلك كأسلوب من أساليب الضبط الاجتماعى ، وفى كثير من الأحيان تنجح هذه الطبقات المسيطرة بما لهـا من سيطرة ونفوذ وبما تملك من أساليب متطورة فى التأثير على وعى الجماهير وجعلها تقنع بهذه الأوهام التى تروج لهـا • ولكن مع نمو وعى هذه الطبقات المستغلة بمصالحها الحقيقية ومع قيام تنظيمات قوية لهـا يتضح لأفرادها زيف هذه الادعاءات وتبدأ فى مقاومة الضبط الاجتماعى الواقع عليهـا من الطبقات المستغلة بل وتبدأ هى نفسها فى ممارسة ضبط اجتماعى على هذه الطبقات • وأمامنا الكثير من الأدلة على حقيقة هذا الوضع كما تتضح من التنظيمات والنقـابات العمالية فى المجتمعات الرأسمالية التى تمارس صراعا عنيفا مع اصحاب رؤوس الأموال وتنجح فى حالات كثيرة فى فرض ارادتهـا عليهم ، وكذلك ما نراه من قوة متزايدة للاحزاب العمالية والاشتراكية فى هذه البلدان الرأسمالية •

تأتى الآن الى الخاصية الثـانية فى هذه التعريفات والمتعلقة بتأكيدها على فكرة النظام ونتساءل أيضا ترى أى نظام يقصدون ؟ أليس هو النظـام القائم أو السائد ؟ وبماذا نسمى الحركات الثورية التى تحدث من آن لآخر

فى هذه المجتمعات بل حتى تلك الحركات الثورية التى نجحت فى غيرها من المجتمعات حسب رأيهم تعتبر هذه الحركات تمردا على معايير المجتمع السائدة ويصبح من واجب المجتمع اعادة هؤلاء المتمردين الى الانصياع للمعايير السائدة كما رأينا فى تعريف بيتر برجر للضبط الاجتماعى ٠

ان موضوع الضبط الاجتماعى هو أحد أهم الموضوعات فى علم الاجتماع الغربى بل أننا نستطيع القول بأن هذا الموضوع هو المحور الرئيسى الذى يدور حوله علم الاجتماع منذ نشأته ونستطيع أيضا أن نقرر أن علم الاجتماع بأسره يعتبر وسيلة للضبط الاجتماعى أكثر من كونه علما موضوعيا له كيانه المستقل بمعنى أن هدف علم الاجتماع الغربى ليس هو تقديم معرفة واقعية وموضوعية بالمجتمع ولكنه يهدف فى الحقيقة الى استمالة أفراد المجتمع لتبنى معايير وقيم وأساليب سلوكية معينة والانصياع لهـا وفقا لخطة مرسومة وواعية وتحت ستار العلم ٠

وسوف يتضح لنـا من مناقشتنا لاراء علماء الاجتماع حول مختلف اساليب الضبط الاجتماعى بصفة عامة والقانون بصفة خاصة مدى صدق هذا الرأى الذى ذكرناه بالنسبة لموضوع الضبط الاجتماعى ٠

لقـد نقدنا آراء علماء الاجتماع الغربيين فى موضوع الضبط الاجتماعى وتعريفهم له ويحق للقارىء أن يتساءل الآن : وماذا بعد ذلك ؟ لقد هدمنا الأساس الذى ترتكز عليه هذه التعريفات ، فهل نتوقف عند ذلك أم أنه يلزمنا تقديم تعريف بديل للضبط الاجتماعى يتلافى أوجه النقـد التى وجهت لهذه التعريفات المختلفة ؟ أم أنه يجب أن نتخلى تماما عن هذا المفهوم بأسره ونستبدله بمفهوم آخـر ٠

الواقع أننى لا أرى ضرورة ما للاستغناء عن هذا المفهوم كلية أو استبداله بمفهوم آخر لسبب بسيط هو أننى ضـد استمرار علماء الاجتماع فى نحت مفهومات جديدة وابتداع مسميات مختلفة لنفس الشىء ، ذلك أن هذه العملية تؤدى بنـا فى النهاية الى الاهتمام بالمفهومات أكثر من اهتمامنا بالموضوعات الملحة التى يجب أن تركز على دراستها أو تؤدى بنـا الى ما أسماه عالم

الاجتماع الأمريكى رايت ميلز العبودية للمفهومات Concept Fetishism ولكنى أفضل أن نصحح تعريف المفهومات الموجودة لدينا فعلا على اسس علمية سليمة . هذا بالاضافة الى أن ابتداع مفهومات بديلة لنفس الشىء سوف يزيد من صعوبة الاتصال الفكرى بين المتخصصين فى هذا العام .

وبناء على ما سبق ذكره من نقد لتعريفات مفهوم الضبط الاجتماعى فاننى أضع التعريف الآتى :

« الضبط الاجتماعى لفظ يشير أساسا الى كل تلك الأساليب التى تلجأ اليها الجماعة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا من أجل فرض قيمها ومعاييرها والأساليب السلوكية الملائمة لها على الجماعات الأخرى فى المجتمع وتضمن بها عدم المساس بمصالحها والمحافظة عليها سواء عن طريق القهر والقمع المباشرين أو عن طريق الاستمالة والاقناع بأن مصلحتها تتفق ومصالح الجميع فى المجتمع . ومع تغير الجماعة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا تتغير أهداف الضبط الاجتماعى والأهمية النسبية لكل من أساليبه » .

ولكننا يجب أن نقرر هنا أن ما نشير اليه هو جوهر عملية الضبط الاجتماعى مدركين ان هناك بعض الجوانب الفرعية الأخرى التى تتصف بصفة العمومية أو الثبات النسبى بغض النظر عن نوعية الطبقة المسيطرة ولكنها فى رأينا جوانب ثانوية ونعنى بهذه الجوانب تلك الخبرات المتوارثة عبر الأجيال والتى يبقى عليها أفراد المجتمع مهما حدث من تغيير فى الأوضاع الطبقية فيه مثال ذلك بعض القيم الأخلاقية العامة والتى لا تتعارض بشكل مباشر مع مصلحة طبقة أو أخرى أو التى ترتبط ارتباطا وثيقا بأوضاع الطبقات الكادحة مهما كانت طبيعتها ، فمد يد العون مثلا للزملاء فى العمل أو للجيران فى وقت الشدة قيمة عرفتها الطبقات الكادحة سواء فى عصر العبيد أو الاقطاع أو الراسمالية وهى تبقى عليها دائما وتمارس أساليب الضبط الاجتماعى المختلفة من أجل الحفاظ عليها . كما يجب ان نشير أيضا الى أن كل طبقة اجتماعية تمارس على أفرادها ضبطا اجتماعيا يختلف عن الضبط الذى تمارسه غيرها من الطبقات على أعضائها . والمثال الواضح على ذلك

هو الفرق بين موقف كل من الطبقة الدنيا أو العاملة والطبقة الوسطى والطبقة البرجوازية الكبيرة فى مصر من السلوك الجنسى فالطبقة الوسطى كما هو معروف أكثر محافظة فيما يتعلق بهذا الموضوع من الطبقتين الاخريين وتمارس أساليب ضبط اجتماعى مختلفة من أجل تحقيق انصياع أفرادها للمعايير التى تتبناها وهى معايير تختلف عن معايير الطبقتين الاخريتين · فالتفوه بألفاظ جنسية صريحة شىء مقبول بالنسبة للطبقات الدنيا وهذه الألفاظ شائعة فى الأغانى المنتشرة بينها أما فى الطبقة الوسطى فان التفوه بمثل هذه الالفاظ يقابل بالاستهجان وبالاستجابات العنيفة أحيانا ، أما الطبقة البرجوازية الكبيرة فانها تستخدم لغة خاصة بها للتعبير عن هذه الموضوعات الجنسية كما أنها تكون أكثر تسامحا وتقبلا لأشكال معينة من العلاقات بين الجنسين · ولا يمكننا أن نفصل هنا بين الواقع المادى الذى تعيشه كل من هذه الطبقات وبين كل ما لديها من معايير من جهة وبين الأساليب التى تتبعها فى ممارستها لعملية الضبط الاجتماعى من جهة أخرى ، فالطبقات الدنيا مثلا تتعامل بشكل مباشر مع موضوعات الطبيعة اللازمة للانتاج ولا وقت لديها للتظاهر وعلاقاتها الاجتماعية تتسم بالوضوح والصراحة وفى نهاية الأمر فانه ليس لديها ما تود أن تخفيه · أما الطبقتين الوسطى والعليا فان أفرادهما لا يدخلون بشكل مباشر فى عملية الانتاج كما أن العلاقات الاجتماعية بين افرادها ليست علاقات تعاونية بل تتسم فى معظم الأحيان بالتنافس وحتى بالصراع ولذلك فانه لابد من التظاهر والتعامل على أسس غير مباشرة وعلى هذا فان قيم الطبقة العاملة تختلف عن قيم الطبقة البرجوازية · ولكن لا يجب أن ننسى أن الطبقة المسيطرة اقتصاديا تسعى دائما وتنجح فى كثير من الأحيان فى فرض قيمها على الطبقات الخاضعة لها ·

كذلك يجب أن نشير الى ان ما يطرأ على المجتمع من تغير فى تركيبه الطبقى لا يتبعه بالضرورة وفورا تغير فى القيم وأساليب الضبط الاجتماعى ذلك أن هذه القيم تظل ذات فعالية لفترة من الوقت بعد التغيرات البنائية فى المجتمع ·

أساليب ووسائط الضبط الاجتماعى :

سبق أن تحدثنا عن أغراض الضبط الاجتماعى وبقى أن نبين كيف يتم تحقيق هذه الأغراض · يستخدم لذلك أساليب Means مختلفة كالتربية والعذف والقيل والقال والسخرية والازدراء والاثابة والدعاية والقانون والرأى العام والعرف ·· لخ ·

ولكن هذه الوسائل يتم استخدامها من خلال وسائط Agonts معينة توجد فى المجتمع · فالدعاية مثلا كوسيلة للضبط الاجتماعى تهدف الى استمالة الأفراد لاتباع قيم أو معايير معينة تتم من خلال وسائط مثل الاذاعة والصحف والسينما والتليفزيون · والقانون تتم صياغته وتطبيقه وتنفيذه من خلال وسائط معينة هى المجالس التشريعية والمحاكم والشرطة · والتربية كوسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى تتم من خلال وسائط هى المدرسة والمدرسين انفسهم ومن خلال الأسرة ·

ويمكننا تعريف أسلوب الضبط الاجتماعى بأنه الأداة التى تستميل بها مجموعة ما أعضاءها أو غيرها من المجموعات أو تجبرهم على اتباع معاييرها وأساليبها السلوكية · أما وسيط الضبط الاجتماعى فانه لفظ يشير الى الجهة أو الهيئة او الأفراد الذين يستخدمون هذه الأداة من أجل تحقيق هدف الضبط الاجتماعى ·

تصنيف أساليب الضبط الاجتماعى :

يعالج بعض علماء الاجتماع أساليب الضبط الاجتماعى بصفة عامة دون اللجوء الى تصنيفها فمثلا حين يتحدث بوتومور فى كتابه « تمهيد فى علم الاجتماع » عن الضبط الاجتماعى يورد العرف والرأى العام والدين والأخلاق والقانون والتربية بوصفهم أنماطا من الضبط الاجتماعى أو أساليب للضبط الاجتماعى دون أن يضع تصنيفا مبدئيا لها ولو أنه يذكر عند حديثه عن العرف والرأى العام بأنهما يشتركان فى أنهما لا يتميزان بقدر كبير من الصورية أو الرسمية ولا ينطويان على نفس الوضوح والتبلور الذى يتصف بهما كل من القانون والأخلاق والدين كما أنهما يشتركان فى قدر من الغموض

فيما يتعلق بمخالفات قواعدهما وفيما يتعلق بالجزاءات التى تفرضها هذه القواعد(١) • ويوحى ذلك بأنه يصنف ضمنا أساليب الضبط الاجتماعى على أساس أبعاد ثلاثة : الرسمية والتبلور ودرجة الغموض •

ويفضل آخرون تصنيف أساليب الضبط الاجتماعى على أسس أكثر وضوحا فمثلا يصنف روسك أساليب الضبط الاجتماعى الى أساليب نظمية Institutional مثل القانون والدين والزواج والتربية ، وأساليب غير نظمية non-institutional أو أدوات للضبط الاجتماعى مثل الايديولوجيات واللغة والأدب والفن •• الخ(٢) • ويمكننا ان نصنف أساليب الضبط الاجتماعى على أسس أو ابعاد متنوعة فنستطيع مثلا أن نصنفها الى أساليب مادية أو فيزيقية كالعقوبة البدنية أو السجن وأساليب معنوية كالدعاية والتربية والايديولوجيا • كما يمكننا تصنيفها على أساس أنها مباشرة مثل القانون أو غير مباشرة مثل الدعاية • وبالطبع يمكننا الجمع بين أكثر من أساس للتصنيف فالقانون مثلا يمكن أن تعتبره أسلوبا نظميا ومباشرا فى آن واحد وهكذا •

ونحن نرى أن هناك خلطا كثيرا فى الأبعاد التى يصنف علماء الاجتماع على أساسها أساليب الضبط الاجتماعى يرجع أساسا الى عدم وضوح تعريفاتهم لأساليب الضبط الى الخلط بين ثلاثة مفهومات اساسية هى : أسلوب الضبط والوسيط الذى يتم من خلاله استخدام الضبط والنظم التى تحدد كلا من أهداف الضبط وأساليبه ووسائطه • وقد سبق أن فرقنا بين مفهومى « أسلوب الضبط ووسيط الضبط » وبقى أن نعرف النظام institution الذى يحدد اهداف الضبط وأساليبه ووسائطه •

نعنى بالنظام « مجموعة مترابطة من القواعد والمعايير التى تنظم النشاط الانسانى والعلاقات الاجتماعية فى المجالات الأساسية من الحياة الاجتماعية » والنظم الأساسية فى المجتمع هى النظام الاقتصادى والنظام السياسى والنظام

---

(١) J. Roucek. opt. cit. p. 8 - 9.

(٢) بوتومور • تمهيد في علم الاجتماع • ترجمة محمد الجوهرى وآخرين • دار المعارف القاهرة • ١٩٧٢ •

الدينى والنظام التربوى والنظام الأسرى أو الزواجى · ولكل من هذه النظم روابط associations تتجسد فيها · فالأسرة رابطة اجتماعية أو مجموعة من الأفراد الحقيقيين يحكم العلاقات بينهم النظام الأسرى أو الزواجى ، والحكومة رابطة أو مجموعة من الأفراد يحكم العلاقة بينهم وبين من يحكمونهم النظام السياسى . والمدرسة أو الكلية مجموعة من افراد يحكم نشاطاتهم وعلاقاتهم النظام التربوى ·· وهكذا · ونحن ندرك بالطبع أنه لا يوجد انفصال بين النظم المختلفة بل أنها تمثل وحدة مترابطة داخل المجتمع الواحد ، وبينما يرى علماء الاجتماع الغربيون أن كل تغيير يطرأ على أحدها يؤثر على بقية النظم ، ويرى علماء الاجتماع الماركسيون أن النظام الاقتصادى هو الأساس وهو الذى يحدد طبيعة النظم الأخرى مع تسليمهم بالعلاقات المتبادلة بين النظم المختلفة ·

ويجب أن نشير هنا الى أنه لا يمكن دراسة أساليب الضبط الاجتماعى منفصلة عن وسائط الضبط ولا منفصلة عن النظم الاجتماعية التى تحدد أهداف وأساليب هذا الضبط · كذلك يجب أن نقرر أن كل وسائط الضبط الاجتماعى يمكن أن تستخدم مختلف أساليب الضبط · فالحكومة مثلا (كوسيط للضبط الاجتماعى) تستخدم الأساليب المختلفة للضبط الاجتماعى مثل استعمال القوة أو استخدام الدين أو الدعاية أو الايديولوجيا من أجل تحقيق الأهداف التى يحددها النظام السياسى · والأسرة أيضا باعتبارها وسيطا للضبط الاجتماعى تستخدم نفس الأساليب من استعمال القوة (ضرب الأطفال أو حرمانهم) والدين لتحقيق الأهداف التى يحددها النظام الأسرى · والمدرسة كوسيط للضبط الاجتماعى تستخدم نفس الأساليب بدرجات متفاوتة لتحقيق الأهداف التى يحددها النظام التربوى ·

وأفضل أن أعالج موضوع الضبط الاجتماعى هنا من خلال عرضنا أولا لأهم النظم الاجتماعية وما تحدده من أهداف للضبط الاجتماعى ونشير الى الوسائط (أو الروابط والمؤسسات) التى يتم من خلالها الضبط الاجتماعى وهذا ما سنتناوله فى الفصل الرابع ثم نناقش مختلف الأساليب التى تستخدمها مختلف هذه الوسائط فى تحقيق الضبط الاجتماعى · وهذا ما سيتناوله الفصل الخامس من هذا الكتاب ·